حول الدعوة إلى

تطبيق الشريعة الإسلامية

ودراسات إسلامية أخرى

الطبعـــة الثالثـة ١٩٩٢
جميع الحقوق محفوظة ©
دار سعاد الصباح
ص . ب : ٢٧٢٨٠
الصفـاة ١٣١٣٣ - الكـويت
ص . ب : ١٣ المقطم - القاهرة
تليفـون : ٣٤٩١٧٧٧
٣٤٩٧٧٧٩
فاكـس : ٥٠٦١٠٣٠

رقم الإيداع : ٤٨٤١ / ١٩٩٢
I.S.B.N. 977 – 00 – 3471 –1

الاشراف الفنى : جلمى التونى

حول الدعوة إلى

تطبيق الشريعة الاسلامية

ودراسات إسلامية أخرى

حسين أحمد امين

دار سعاد الصباح

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

في هذا المجلد سبع عشرة مقالة سبق نشرها في عدد من المجلات العربية.

وقد لقيت هذه المقالات بأسرها من الامتعاض والاستياء، وبعضها من الهياج والثورة، ما كان يبرّر تسميتها باسم كتاب برتراند راسل «مقالات مكروهة»، لولا أنها أثارت في نفس الوقت من حماس البعض الآخر وإعجابه: ما شجّع الناشر وشجّعني على نشرها في كتاب

وأبادر فأقول: إن ثمة طائفةً لم يطربني مدحُها، وطائفةً لم يُغضبني قدحُها. فإن كان بعضُ الملاحدة الجاحدين قد سَرَّه أن أتعرّض بالهجوم والانتقاد لعدد من المظاهر القبيحة في مسلك أنصار الجمود والجماعات الدينية المتطرفة، وشاء أن يرى في هذه المظاهر سمات لصيقة بالدين ذاته، فقد أخطأ خطأً فادحاً في فهم قصدي وتأويل مرادي. وإن كان بعض المتحجرين، أعداء التقدّم والاستنارة، قد شاء اعتبار المقالات كلها من أولها إلى آخرها من قبيل التجديف والزندقة، والحقد على الإسلام، فلم أكن في يوم من الأيام بالرامي الى استمالته، أو الآمل في إقناعه. فحديثي ما كان يستهدف إرضاء أولئك أو هؤلاء، ولا إرضاء أحد في الواقع على الإطلاق. وإنما كان يستهدف عرض مفهومي عن إسلام مستنير مساير لروح العصر واحتياجاته ومشكلاته، ومفهومي عن الأباطيل وطبيعة العقليات والمواقف التي تعرقل أداء الإسلام لرسالته. وقد استلهمت كتاب الله عزّ وجلّ في تكويني لهاذين المفهومين، وكذا السيرة العطرة لأحبّ خلق الله الى نفسي، وأعظمهم في رأيي: محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب. وما كنت لأجد القوة والجرأة على أن أكتب ما أكتب، أو أنشر ما أنشر، لولا اعتقاد راسخ غامر عندي بأنه عليه الصلاة والسلام راض عما أصنع، مبارك لما أفعل، مقرّ لما أذهب إليه.

قصدني قومٌ من الملاحدة يهنئونني على ما أكتب ، فساءهم أن يروني أستقبل تهانيهم استقبالي لنبأ يقضّ المضاجع . والتقيت بقوم من المتحجرين أو المتاجرين بالدين فسبّوني وأغلظوا لي ، ومنهم من أبى مصافحتي ، فساءهم أن يروني أستقبل لعناتهم استقبالي لمباركة إلهية . غير أن ثمة فريقاً ثالثاً غير هاذين : هو ذلك الذي يرى الدّين القويم عمادَ حياته ؛ وأملَ أمته ، ويؤلمه أن يرى الخرافات والخزعبلات والأوهام وقد تراكمت حتى ما عادت تستبين ملامحه ، ولو عاد الرسول صلى الله عليه وسلم إلينا في يومنا هذا لما تعرّف عليه . أناسٌ قد أخذوا حظاً وافراً من الثقافة ، وقبلوا ثمارَ العلم ونتائجه ، ويريدون لأنفسهم ديناً يملأ القلب ، ويغذو العاطفة ، ويهذّب الخلق ، ويُعلي في نفس الوقت من شأن العقل ، داعياً إلى التزوّد بالعلوم ، وإلى المواقف الإيجابية الفعّالة النشطة من الحياة ، ويرى الإنسان خليفةً لله في الأرض ، ولا يقرّ من العقائد ما خالف النتائج الثابتة التي توصّل إليها عقله الذي هو أيضاً من نِعَم الخالق على الخلق .

هذا الفريق الثالث ، ومنهم زوجي وبناتي الثلاث ، هو من أكتب له ، ويهمّني أمرُه ، ويسرّني تجاوبه بالرضا ، وآخذ اعتراضاته وتحفّظاته بعين الاعتبار ، ويسوؤني أن أرى بعض أفكاري وقد ساءه . وقد أفلح بعضُهم في أن يصحّح لي بعض المفاهيم ، ويثنيني عن بعض المواقف ، وينبّهني إلى أخطاء وقعتُ فيها ، ووهم قد انزلقتُ إليه . فإن كان بقي في الكتاب ما قد لا يرضى عنه هؤلاء ، فهي نقاط قابلة لأن أعيد النظر فيها ، ولأن أصحّحها متى اقتنعت في مستقبل الأيام بوجهة نظرهم . فشعاري الذي أضعه دوماً نصب عيني ، والذي يطالعني صباح مساء في حجرة مكتبي إذ أجلس للتفكير أو الكتابة ، هو قوله الإمام الشافعي رضي الله عنه :

« ما ناظرتُ أحداً قط فأحببتُ أن يخطىء ، وما كلّمتُ أحداً وأنا أبالي أن يبين اللهُ الحقَّ على لساني أو على لسانه » .

حسنين أحمد أمين

القاهرة في ٢٠ أكتوبر ١٩٨٤

بروتوكولات حكماء الغرب

أجدني عاجزاً عن استساغة ما يُكنّه الكثيرون في أقطارنا الإسلامية من مشاعر الكراهية للغرب ، والغضب إزاء نواياه وخططه ومسلكه تجاهنا . وحجّتهم في هذا قائمة على أساس مفاهيم طوباوية عن العدالة لا أجِدُ لها تبريراً . وهي مفاهيم لا يلجأ إلى التلويح بها غير الفريسة الآدمية إذ تقع في براثن مفترسها ، وكسلاح أخير . غير أن الطير والحيوان لا تعرفها : هي تعرف الخوف والحذر والدفاع عن النفس ، ولا تعرف الكراهية والغضب والتحسّر على النفس . وقد كان السمك الكبير دوماً ، وسيظل دوماً ، يأكل السمك الصغير . والسمك الصغير إما أن يهرب ، أو يختبىء ، أو يقاوم . غير أنه لا يحتجّ بوثيقة حقوق ، ولا يتّهم الكبير بغدر أو قسوة ، ولا يلجأ إلى مجلس أمن .

وقد كانت الدول الإسلامية نفسها في عصر من العصور على وشك التهام القارة الأوروبية بعد التهامها لأقطار أخرى عديدة في أفريقيا وآسيا . فما خلّص أوروبا غير انتصار جيوشها على المسلمين في وقعة تور ، وعند أبواب فيينا . صحيح أن المسلمين إنما كانوا يقصدون بغزوهم نشر الدين الحقّ لا النّهب والاستغلال ، غير أن الأوروبيين أيضاً احتجّوا عند غزوهم لأقطار

المسلمين بأنهم إنما يقصدون نشر المدنية (عبء الرجل الأبيض) ، أو وقف مظالم يتعرّض لها حجيج ، أو تعاني منها طوائف .

وقد يحتجّ بعض المسلمين بأن الاستعمار الإسلامي لدولة كأسبانيا كان بنّاء ، وفي خدمة التمدين والعمران ، ولم يتخذ شكل النهب والسلب والتفرقة العنصرية الذي اتّخذه الاستعمار الأوروبي لدول آسيوية وإفريقية . غير أن الاستعمار الأوروبي لأمريكا الشمالية وأستراليا كان هو الآخر بنّاء وفي خدمة التمدين والعمران ، في حين لم يجلب الاستعمار العثماني للبلقان غير الخراب .

شرعية الالتهام

أقول ، إنه لا محلّ للغضب والشكوى من أننا قد بتنا والغير على وشك التهامنا ، بعد أن كنا قاب قوسين أو أدنى من أن نلتهمه . وعلينا أن نتقبّل شرعية الالتهام في عالمنا هذا ، وأن نقصر تفكيرنا وجهودنا على كيفية الإفلات ، إن كان ثمة فرصة للإفلات .

والسمكة الكبيرة إن هي أحجمت عن التهام الصغيرة فلسبب من أربعة ليس من بينها مفهوم العدالة أو حقوق الأسماك :

الأول : أن تكون شبعى وفي غنى عن البحث عن فريسة . كذا كانت ألمانيا والولايات المتحدة خلال القرن التاسع عشر . غير أن هذا الامتناع مؤقت ينتهي بانتهاء دواعيه ؛

الثاني : أن تكون السمكة الصغيرة أضمر جسماً وأهون شأنا من أن تُغرى بالالتفات إليها . وكذا كانت شبه الجزيرة العربية قبل اكتشاف النفط فيها ؛

الثالث : أن تتنازع سمكتان كبيرتان عليها ، فيؤجل التهام الصغيرة إلى

حين انتصار إحداهما على الأخرى . وفي التاريخ أمثلة جمّة لكيف أجّل الإصرار على توازن القوى ، أو التنافس والتنازع بين دولتين عظميين ، وقوع أقطار في براثن الاستعمار ؛

أما السبب الرابع : فهو أن يكون لدى السمكة الصغيرة نفسها من سبل الدفاع عن كيانها ما يحول بين الكبيرة وبين التهامها مع تفاوتهما في القوة كما في حالة السمك الكهربيّ الذي تولّد أعضاء فيه الكهرباء بإرادته متى أراد حماية ذاته ، أو قنفذ البحر الذي تَحُول أشواك جسمه دون التهام الأسماك له .

وليس معنى وقوع الأقطار الإسلامية ، مذ باتت غير ذات شوكة في الشّباك التي نصبها الغرب لها ، أن هذه الأقطار باتت غير ذات شوك فالشوك الذي ينغّص على الغرب أكلته ، ويؤلمه في قضمته ، لا يزال قائماً . غير أن جهود الغرب في انتزاعه لا تكلّ ولا تفتر ، حتى يغدو اللحم أجرد وسائغاً مستطاباً . كل هذا منطقي ومعقول ، بل ومشروع في عالم كعالمنا ، ولا اعتراض لي عليه . ما أراه مذهلاً هو أن توكل الفرنجة إلى بعض أبناء جلدتنا وملّتنا مهمة نزع الشوك عن أجسادنا نحن ، الشوك الذي يحمينا نحن ، حتى تكون قضمتهم من لحمنا أنعم وأسلس ، بل وأن يتطوّع بعضنا ـ دون توكيل ـ بنزع هذا الشوك ظاناً أن نشاطه هذا من قبيل مواكبة التمدين ، ومن مستلزمات (الموضة) .

كسّارة الجوز

وواضح أن الشوك المطلوب لحمايتنا في عالم اليوم ليس بالأسلحة الحربية ؛ فعند السمك الكبير أضعافها . وليس هو السلاح الاقتصادي مهما تشدّقنا بذكر أهمية سلاح النفط ؛ إذ باستطاعة الدول الكبرى أن تلتهمنا بحقول نفطنا في غمضة عين ، لحظة أن ترى أن تهديدنا باستخدام هذا السلاح قد خرج عن حدود التهديد الكلامي . كما أنه لا يكمن في حياد ، أو انضمام إلى كتلة عدم انحياز ، أو حضور مؤتمر قمة آسيوي إفريقي ، أو الاستجارة من

الرمضاء (الاتحاد السوفييتي) ، بالنار (الولايات المتحدة) .

إنما أرى الشوك الواقي لنا من فكوك الفرنجة في ديننا وتراثنا ولغتنا وتقاليدنا ، وفي حرصنا على التمسك بهذا كله كل الحرص ، واعتزازنا به . ففي اعتقادي أنه بمثابة قشرة الجوز التي يصعب على أضراس الغرب كسرها للوصول إلى ما يليها .

والغرب يدرك هذا الأمر الذي تجهله غالبيتنا إدراكاً واعياً تاماً ، كما يعلم جيداً أن جهلنا بهذه الحقيقة أمر بالغ الحيوية بالنسبة له . والمصيبة ليست فقط في جهلنا إياها ، وإنما هي أيضاً في تطوعنا بتقديم كسارة الجوز للفرنجة ، تسهيلاً منا لمهمتهم ، وإشفاقاً على أسنانهم البيضاء من غلظ القشرة .

وقد انتهجت أذكى الحيل من أجل تفريغنا من مضموننا ، وتجريدنا من سلاحنا ، دون أن نشعر بهذا التفريغ أو ذاك التجريد . وسيأتي الوقت الذي نقصد فيه المخبأ الذي نظن كنزنا مستقراً فيه سالماً ، فإذا قضبان الذهب وقد استبدل اللص بها قوالب الطوب ، وإن كان قد ترك الصندوق والأقفال على حالها حتى لا يثير شبهة تدعونا إلى المعاينة للاطمئنان . قد نظن احتفالنا برمضان قائماً إذ تعد إدارة التليفزيون له الفوازير ، وتكثر من إذاعة المسلسلات التمثيلية الدينية فيه . وقد نحسب أننا لا نزال مسلمين إذ نمتنع عن أكل لحم الخنزير في الوقت الذي لا تكاد تكون بين حياتنا ونمط العيش الإسلامي أدنى صلة . وقد نخال أننا نتحدث ونكتب العربية لمجرد أننا ننطق بالضاد ونكتب من اليمين إلى اليسار ، في الوقت الذي نسمي فيه كتب الجاحظ وأبي حيان التوحيدي كتباً صفراء ونسخر من الناظرين فيها . وقد نتوهم أن تقاليدنا مستمرة إذ تقدم فنادق الشيراتون والهيلتون عروضاً لرقص البطن والعزف على المزمار ، وتخصص (الكافيتيريات) فيها لسندوتشات الفول .

فلو أني اهتديت بفكرة أفلاطون عن عالم المثل لتخيلت وجود بروتوكولات كتلك التي تنسب إلى حكماء صهيون، قد خطها الغرب لتحكم مصائرنا وأسس تعامله معنا. وبوسعي أن أتصور أن يكون بعضها على النحو التالي :

* فيما يتعلق بالمثقفين : لنخلق رابطة متينة بين أسلوب معيشتهم وأسلوب المعيشة في الغرب، واحتياجات لديهم لا تسدها غير منتجات مصانعنا، وأذواقاً لا يرضيها غير آدابنا وفنوننا. ولنعودهم سفر الطائرات، وحضور ما نعقده من مؤتمرات، والإقامة بفنادق الشيراتون. أطلعهم على مفاتن الفيديو، ثم أقم له النوادي بعواصم بلادهم. ولا تغفل زوجاتهم فهن أخطر شأناً وأضل سبيلاً. وهن وحدهن كفيلات إذ يزدن من الاستهلاك في محيط أسرهن، بأن يدفعن أزواجهن دفعاً إلى محاولة زيادة دخولهم بالبحث عن وظائف في بنوك أو شركات أجنبية، وبتقديم المشورة وإعداد البحوث لمؤسسات عالمية.

* فيما يتعلق برجال الدين : أفسح مجال الشهرة للخطباء والوعاظ المسفين السطحيين منهم، حتى ينفروا بإسفافهم وضيق أفقهم وانشغالهم بتوافه الأمور عن القضايا الملحة لشعوبهم، جمهور المثقفين المستنيرين منهم ومن الدين بأسره.

* فيما يتعلق باللغة العربية وآدابها : وجه اهتمامك إلى سخرية الناس منها ومنهم، بأن تتضمن الأفلام السينمائية والعروض المسرحية والتليفزيونية نماذج عينات بغيضة متحذلقة منهم، يتكلمون الفصحى بطريقة منفرة ومضحكة في آن واحد. واحرص على أن تكون دروس العربية في المدارس في آخر اليوم الدراسي حين تكون الأذهان قد كلت، والنفوس قد ملت، وخصص دروس الصباح الأولى لتعليم اللغات الأجنبية. ولكن مثل هذه الطريقة تورث المهجة

والمسلك ، محدود الأفق والثقافة ، بالمقارنة بغيره من المدرسين . ولتكن طباعة كتبها من السوء والقبح بقدر ما تتميّز به طباعة كتب اللغات الأجنبية من أناقة وجمال ، حتى ترتبط العربية في أذهان أطفالهم الغضّة بالقبح مدى الحياة. فإن دُرِّس الأدب العربيّ لهم فليكن المختار منه هجاء الفرزدق لجرير الذي يلقّبه فيه بابن الحمار ويفخر بخاله على خال جرير . وليكن المختار من الأدب الانجليزي مسرحية مكبث وقصائد كيتس .

* وفيما يتعلق بالتقاليد : فلا بأس من الإبقاء على بعضها ذرّاً للرماد في الأعين ، ولكن بعد تفريغها من كل روح ، بحيث تكفي ـ وقت الحاجة ـ نفخة واحدة للإطاحة بها . أقم هيكل المجتمع الجديد على أساس لا مكان فيه للتقاليد التي تمثّل عائقاً دون تقبّل أسلوب المعيشة الغربي ، وقد وضح أن للأفلام السينمائية الأجنبية تأثيراً لا يعادله تأثير في زعزعة القيم في النفوس . فلتكن هي أداة رئيسية في سبيل غرس قيم جنسية وأخلاقية واجتماعية غريبة كل الغرابة على القيم الشائعة في مجتمعهم . ولا تهزأ بأمور تبدو تافهة وهي أبعد ما تكون عن التفاهة فيما يتصل بالتقاليد والعادات ، ككعك العيد ، أو نقل رمضان وفوانيسه . فلتوحِ إلى اقتصاديّيهم وصحافيّيهم بالسخرية من مثل هذه العادات ، والتظاهر بالفزع إزاء العبء الذي تتحمّله بسببها مالية الدولة ، ولْتُقنعْ ربات البيوت بأن شراء الكعك والمربى من المتاجر أجدى من حيث الراحة وتوفير الوقت ـ بل والمال ـ من صنعها لهما بالبيت .

* وفيما يتعلق بالعامة : فإن مجرد نشر العادات الاستهلاكية الشائعة في الغرب ، وغرس الاعتقاد بتفوق أساليب الحضارة الغربية وأنماطها ، وتعزيز ذلك بتأثير الأفلام ، وتأثير الطبقات الأغنى المتفرنجة ، كفيل بخلخلة قيمهم ، وتغيير مفاهيمهم . ولا بأس إن ظلّت لديهم بقية من دين ؛ فالأرجح ـ بل الموثوق منه ـ أنها لن تتعدّى زيارة الأضرحة ، والتفوّه من حين لآخر بعبارات دينية معينة لا ضرر منها ، ومصمصة الشفاه كلما سمعوا من وعّاظهم قصة خارقة لقوانين الطبيعة ، والتمتمة بالصلاة والسلام على النبي عند ذكر

اسمه ، والسؤال عند تقديم اللحم في المطاعم عما إذا كان لحم خنزير ، وكأنما في الامتناع عن أكله لبّ الدّين كله وجوهره . غير أن الأهم من هذا وذاك هو شغلهم بكسب القوت ، وزيادة الرزق ، وتنمية القدرة على استهلاك الكماليات والرغبة فيها ، فلا يكون همّ أحدهم إلا نفسه « وما هو فيه من دَبَرِ دابته ، وقَمْل فَرْوته » . وعلى أي حال فإننا مطمئنون من هذه الجهة ، ونلاحظ بعين الرضا كيف أن بعض السباكين والسمكرية بات يسمّي حانوته « دابل تو » و « سويت سيكستين » .

* وفيما يتعلق بالمرأة ، فنحن أكثر اطمئنانا بحيث يمكن ألا نشغل بالنا كثيراً بها . فالمرأة بوجه عام أكثر مسايرة للمجتمع الاستهلاكي من الرجل . والأخلاقيات الجنسية عند نساء كل من الطبقة العاملة والطبقة الأكثر غنى تقترب بخطى سريعة ثابتة من مفاهيم المرأة الغربية . ولا مفرّ من أن تشكّل النسوة من هاتين الطبقتين ضغطاً متزايداً ، من فوق ومن تحت ، على المرأة البورجوازية .

* كذلك فإن حال الشباب يدعو إلى الرضا . قارن الشباب منذ جيل أو جيلين حين كان الفرد منهم إما ماركسياً أو أخاً مسلماً أو وفدياً أو مجرد فتى مثالي يحلم بالثورة ، ولا يكاد يطيق الانتظار حتى يفرغ من دراسته حتى يكرّس نفسه لتغيير الأوضاع الظالمة ، وبين شباب اليوم الذي تتطلّع غالبيته إلى العمل بأحد الفنادق ، أو إلى وظيفة بمؤسسة أجنبية ، أو إلى الهجرة فور التخرّج من الجامعة إلى دولة « متحضّرة » .

* الأصعب مراساً من كل هذه الفئات ، بل المشكلة الكبرى ، هي فئة المتدينين ، وهي التي ينبغي أن نركّز عليها جُلّ اهتمامنا . فالمجتمع الإسلامي يسير سيراً حثيثاً في الطريق المرغوب فيه نحو طور ثان من التغريب . وهو واصل إليه حتماً ما لم يقم أفراد تلك الفئة بحركة تربك حساباتنا . غير أن القلق إزاءها لا يعني فقدان الأمل في احتواء إشعاعها . فقد

يكون بالإمكان التأثير في أفكارها عن طريق المثقفين المعتنين بالدراسات الإسلامية الذين دُرِّبوا في جامعاتنا على النظرة النقدية إلى أنفسهم وإلى تراثهم ، والتأثير في أفرادها برفع المستوى المادي للطبقة البورجوازية الصغيرة التي تنتمي غالبيتهم إليها ، والحد من نطاق مظاهر الفجور حولهم وهي التي تدفعهم إلى المزيد من التشبث بالدين . غير أننا قد نشعر أحياناً بأن قلقنا إزاءهم مبالغ فيه ، وذلك حين نلمس منهم - رغم العجاب عند نسائهم ، وطول لحى رجالهم ، ورغم التعصب عند الجميع - جهلاً مذهلاً وغير متوقع بأصول الدين ، وبالشريعة والسيرة النبوية ، والتاريخ الإسلامي واللغة العربية ، مما يدفعنا إلى الاعتقاد بأن موقفهم لا يستند إلى أساس متين ، ولا شيء وراءه غير التشدق الأجوف بالدين . . بيد أن الحيطة مع كل هذا واجبة ، والحذر بنا أولى . وليس لنا أن نعزي أنفسنا بأنهم ينهلون أصول دينهم من كتب غثة مليئة بالترهات ، لا من أمهات كتب تراثهم ، ومن خطب أسلاج رجال الدين وخطباء المساجد معارف ، لا من أجلة الفقهاء ، واختصاراً فإننا لن نغفر لأنفسنا الاستهانة بهذه الفئة استهانة يمكن أن تؤدي في المستقبل إلى خلخلة الانتصارات التي حققناها بصدد غيرها من الفئات ، وهي الاستهانة التي أبديناها بصدد إيران . وبالمناسبة ، فإنه من المهم جداً في سبيل الإساءة إلى صورة هذه الجماعة في أذهان فئات المجتمع خارجها (وحتى نحصر خطر انتشار تأثيرها) ، التركيز على أهوال ثورة الخميني وفظائعها ، وعلى الخراب الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي ألحقته تلك الثورة بإيران ، وذلك من قبيل التحذير مما عساه أن يحدث في سائر الدول الإسلامية لو أن الحركات الدينية أفلحت في بسط نفوذها .

الهـــدف

تتلخص في تصوري بعض بنود «بروتوكولات حكماء الغرب» التي قد أرى فيها بعثة إفراد كتاب كامل لها . والهدف الأساسي من ورائها جميعاً ، وما ذكرناه منها هنا وما لم نذكره ، هو في إيجاز شديد :

« إحداث تغيير جذري في البنية الطبقية للأمة ، بحيث يخدم هذا التغيير المصالح الاقتصادية والتجارية للفرنجة . ومن وسائل هذا التغيير خلق عادات واحتياجات استهلاكية جديدة ، وتوسيع قاعدة القادرين على الاستهلاك ، والتأثير في أنماط سلوك الأفراد وأخلاقياتهم وقيمهم ، بحيث يصبح طلب المال والإثراء السريع بأية وسيلة من أجل إشباع شهوة الاستهلاك ، هو غايتهم الرئيسية ، وهدفهم الذي ليس وراءه هدف » .

وإنه ليصعب عليّ أن أتفق في الرأي مع من يسمي الانقلاب الذي دبّره ضباط الجيش المصري ضد النظام الملكي ثورة ، ومع من يرى في تحوّل السادات عن طريق الاشتراكية إلى ما يدعي بسياسة الانفتاح ، وفي اتجاهه إلى مصالحة إسرائيل ، انحرافاً حاداً عن سياسة سلفه عبد الناصر . والأرجح في اعتقادي أن كل « نظام » من هذه « الأنظمة » إنما جاء ليحمل الأمة على السير في نفس الاتجاه الذي أريد لها من قِبَل الفرنجة ، حتى لو تظاهر الغرب بالغضب على هذا والرضا عن ذاك ، وبالفتور تجاه هذا والتحمس لاتجاه ذلك .

ففي رأيي أن كلاً من الثورة الحقيقية والتحول الراديكالي يعني بالضرورة إجهاضاً وإحباطاً لاتجاه كان يراد له (لو كان بوسعه) أن يستمر لولا حدوث الثورة أو التحول ، فكان الاستمرار : أما أن يسقط النظام ، أو انهيار سياسة معينة ، في سهولة ويسر ، بمجرد هزة بسيطة لجذع الشجرة ، أو لهبوب ريح هينة ، فلا يعني كثيراً أن مرحلة معينة قد انتهى دورها ، وآن أوان تدشين مرحلة جديدة ، على نفس الطريق ، يتولاها أناس جدد .

حدث هذا بالنسبة لانقلاب ٢٣ يوليو ، ولاتجاه السادات إلى الانفتاح وإلى الصلح مع إسرائيل .

فكل من عاصر أو قرأ عن حركة ٢٣ يوليو يرى بوضوح أن نظام الملك فاروق خلال السنوات الأخيرة من حكمه ، لم يكن في حاجة إلى جهد كبير

لإسقاطه ، وأن صورة الأوضاع في ختام عهده كان لا بدّ من الإقدام بسرعة على إجراء تعديل في ملامحها الرئيسية . وقد كان من الممكن أن ينهض بهذه المهمة أناس من أمثال أحمد نجيب الهلالي . ويبدو أنه كان قد اختير بالفعل للنهوض بها حين عُيّن رئيساً للوزراء في أول مارس سنة ١٩٥٢ . غير أنه رؤي من الأنسب أن يقوم أفراد جدد ـ من خارج النظام ـ بتدشين المرحلة الجديدة .

كذلك فقد كان واضحاً في نهاية حكم عبد الناصر أنه بات في سبيل التحوّل عن الخط الاشتراكي ، والتقارب مع الولايات المتحدة ، والوصول إلى نوع من التفاهم مع إسرائيل . غير أنه كان من الأنسب ـ هنا أيضاً ـ أن يضطلع بهذه المهمة رجل غيره كان طوال حكم عبد الناصر على هامش نظامه .

فالمهمة إذن واحدة ، ذات أشكال متغيرة ، ومراحل متعاقبة ، تلك التي سعت كافة تلك « الأنظمة » إلى تحقيقها على مرّ السنين .

وقد كان لا بدّ من أجل البدء في التنفيذ من ضرب الأرستوقراطية والإقطاع . صحيح أن مصر لم يكن بها عام ١٩٥٢ طبقة أرستوقراطية في عراقة ومقوّمات الأرستوقراطية الغربية مثلاً . فجُلّ أفرادها ـ بعد قضاء محمد علي على المماليك ، وتحقيقه قدراً من الاستقلال عن الدولة العثمانية ـ كانوا ممن يدينون لمحمد علي وخلفائه بالثروة العريضة ، أو المنصب الرفيع ، أو التعليم العالي ، أو بها معاً ، مما مكّنهم من انتحال سمت الارستوقراطية . على أنه بالرغم من أنه من النادر أن نجد عائلة أرستوقراطية مصرية تمتد عراقتها إلى أكثر بكثير من قرن ونصف قرن ، فقد تمكن عدد غير قليل من هذه العائلات ـ أحياناً في ظرف جيلين اثنين لا أكثر ـ من اكتساب الصفات البارزة المعروفة للطبقة الارستوقراطية . ومع كل عيوب هؤلاء وأوجه قصورهم ، فقد كانت قد بدأت تتبلور فيهم بشائر سمات خلّاقة إيجابية ، أهمّها طرّاً ، (وهو ما يعنيني هنا) هو القدرة النسبية ، بحكم ثقافتها وهيبتها وكبريائها ، على الوقوف

في وجه الاستبداد وتضييق مجاله .

وقد كان لا بدّ لأية حكومة تنوي النهوض بمهمة إحداث التغييرات الاجتماعية والاقتصادية المطلوبة لتحقيق الأهداف التي سبقت الإشارة إليها ، من ممارسة قدر عظيم من الاستبداد في سبيل الإسراع بتنفيذ هدفها . وقد فهم رجال عهد عبد الناصر ـ أو هم أُفهموا ـ حقيقة بالغة الأهمية : وهي أن أعجز الشعوب عن مقاومة الحكومات المستبدّة هي تلك التي لم يعد فيها مكان للطبقة الارستقراطية ، ولا في وطنها مناخ يسمح للطبقة الارستقراطية بأن تعيش في ظله . وكان أن رأينا أول ما اتجهت إليه عزائم عبد الناصر ورجاله هو تصفية طبقة الارستوقراطيين والإقطاعيين .

وقد علّمنا التاريخ أن معظم الحكام الساعين إلى فرض استبدادهم وزعزعة دعائم حرية شعوبهم ، يبدأون عادة بالتظاهر بالإبقاء على الشكل الخارجي للحرية ،على أمل أن يجمعوا بين السلطة الاستبدادية المطلقة ، وإضفاء الشرعية على النظام بدعوى رضا الشعب عنها نتيجة لقيام هؤلاء الحكام بمحالة تحقيق المساواة ، وإزالة الفوارق بين الطبقات ، ومؤازرة الفقير ضد الغني ، والفلاح ضد الإقطاعي ، ورجل الشارع في مواجهة الأرستوقراطي .

كما علّمنا التاريخ أنه بالرغم من أن تحقيق هذه المساواة السطحية من أسهل المهام التي بوسع الحكومات المطلقة إنجازها ، وبسرعة ، فإن مآل هذه المساواة النزائفة هو إلى زوال مؤكد ، وفي أمد قصير ، حيث أنه يتعذّر على هذه الحكومات الاستمرار في تظاهرها مدة طويلة .

الوسيلـــة

فما نجح عبد الناصر في القضاء على الأرستوقراطية ، حتى اتجه بكل طاقاته ـ كما اتجه السادات من بعده ـ إلى تكييف المجتمع التكييف اللازم

لإحداث النتائج المطلوبة ، وخلق الجو الكفيل بانحلال الروابط العائلية والطائفية والطبقية والمهنية . ففي مثل ذلك الجو وحده نلمس في أفراد هذا المجتمع اتجاها طاغياً الى التفكير في مصالحهم الخاصة دون غيرها ، واتخاذ سمت الفردية المطلقة ، والسعي وراء المنفعة الذاتية دون أدنى اهتمام بالصالح العام . وقد شجع هؤلاء الحكام هذا الاتجاه ـ كما شجعوا على انتشار الرذائل وتعهّدوا نموها وازدهارها ـ من أجل أن تحرم المحكومين من أي إحساس بالتضامن ، وتجرّدهم من مشاعر الأخوّة والمواطنة والجيرة الطيبة والحرص على خدمة الجماعة التي ينتمون إليها . فهم يريدون لكل مواطن أن يتقوقع في حياته الخاصة ، وأن يبقى بمنأى عن الآخرين ، وأن يشعر تجاه كل من عداه ـ خلاف أفراد عائلته الصغيرة ، زوجه وأولاده فحسب ـ بالشكّ والنفور .

وإذ تمكن الحكام بعد ذلك ، بفضل تتابع دساتيرهم وقوانينهم وإجراءاتهم التحكمية المفاجئة ، من خلق الإحساس لدى الشعب بأنه ما من وضع يمكن الاطمئنان إلى ثباته ودوامه واستقراره ، فقد سيطر على كل فرد فيه الخوف من أن يهبط مستواه الاجتماعي ، والرغبة القلقة في النهوض والارتقاء بهذا المستوى . وحيث أن المال يصبح حينئذ المقياس الوحيد للمركز الاجتماعي للفرد ، فقد اتجه الجميع في لهفة شديدة إلى تحصيل أكبر قدر منه ، وأضحت أشدّ العواطف تحكماً في النفوس حبّ الكسب والرغبة في الثراء بأي ثمن ، ومن أي طريق ، واللهفة على رغد العيش والحياة المادية السهلة . وقد بادر النظام بتهيئة جوّ السرية اللازم لازدهار النصب والاحتيال ، والسرقة والكسب غير المشروع ، وإطلاق العنان لكل شهوة خبيثة . وكان هدفه من ذلك زعزعة القيم الروحية والأخلاقية للشعب ، إذ رأى في هبوط معنوياته الضمانة الأساسية لتحويل اهتمامه عن الشؤون العامة ، وعن مقاومة الاستبداد ، وعن السعي وراء أي شيء عدا المركز الاجتماعي ، وعدا الثراء الذي هو مقياس هذا المركز ، وعدا التوسع في استهلاك المنتج الذي فيه

الدّلالة الظاهرة الوحيدة على الثراء .

فما تحقّق خلق هذا الجوّ حتى جاء السادات بسياسة الانفتاح الاقتصادي .

ثم تدفقت علينا سلع الفرنجة .

* * *

هذا التحليل وحده ، في اعتقادي ، هو الكفيل بأن يفسر لنا كيف تدَلّيْنا إلى ذلك الدّرك الأدنى الذي نعيش الآن فيه .